من رسائل الشيخ شامل

« على هامش الثقافة العربية فى الاتحاد السوفيتى »

للأستاذ برهان الدين الداغستانى

فى شهر يونيو من سنة ١٩٤٣ أذاع الأستاذ أغناطيوس كراتشكوفسكى محاضرة عن الثقافة العربية فى الاتحاد السوفيتى جاء فيها ما يأتى : « ولا يزال بعض سكان داغستان يتكلمون بلغة عربية قديمة إلى جانب لغتهم الأصلية ، ويستخدمونها فى التخاطب والكتابة ، وحتى فى نظم الشعر وفق الأوزان العربية القديمة الخ » .

ونشرت خلاصة تلك المحاضرة فى بعض الصحف المصرية يومئذ ، فقام أحد كبار الكتاب المعنيين بالشئون القوقازية ، وكتب مقالا فى إحدى الصحف اليومية الكبيرة حاول فيه التشكيك فيما قاله المحاضر عن ذيوع اللغة العربية فى بعض جهات الداغستان ، وكتبت فى ذلك الحين مقالا طويلا شرحت فيه مكان اللغة العربية فى القوقاز وبينت أنها عماد الثقافة العامة فى الداغستان من أمد بعيد . وقد تفضلت الرسالة الغراء فنشرت ذلك المقال فى العدد الأول من سنتها الثانية عشرة (يناير سنة ١٩٤٤) .

هذه كلمة وجيزة أردت بها التمهيد قبل نشر بعض الرسائل التى عثرت عليها مما كتبه الشيخ شامل نفسه فى شئون مختلفة بلغة عربية سليمة ، فيها سلاسة العبارة ، ووضوح الفكرة .

وهى أربع رسائل عثرت عليها اتفاقاً عند أحد شيوخ الداغستانيين فى حمص — سورية — فى الصيف الماضى [1] .

وهذه الرسائل تفيدنا أن شاملا كان يدعو نفسه — كما كان يدعوه أصحابه وأتباعه فى القوقاز — أمير المؤمنين .

كما نعرف منها أن اسمه المعروف به هناك هو « شمويل » وإن اشتهر فى خارج بلاد القوقاز باسم الشيخ شامل .

وهذه هى الرسائل :

(١) هو الحاج محمد الأقوشى الداغستانى فى يوم الجمعة ١١/٧/١٩٤٧ م

— ١ —

من أمير المؤمنين شمويل إلى والده الأعز جمال الدين وإلى أخويه الكريمين الحاج على العسكرى والقاضى حجيو وإلى أهل بيته ، فإلى كافة جماعة القريتين .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد. فلقد وقع بيننا وبين الكفار وقائع وحروب بحيث لم يقع مثلها إلى الآن فى ديار « چچان » [1] ، بل فى ديار داغستان . يوم الأحد والإثنين ، بالمدافع الكبار والصغار والسيوف الصوارم ، ونصرنا الله تعالى وأيدنا تأييد النبى المختار محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخذل أولئكم اللاعين أينما توجهوا ، ورجعوا من أمام باب شعيب إلى قلعة « أى سُنْقُر » مقهورين منهزمين بحيث لا يرجعون إلى ديارنا بعد ، فحمدنا الله تعالى وشكرناه على أياديه العظام ، وإعانته لنا . وهذا بشرى لكم أيها الكرام ، ولعل هذا التأييد بسبب بركات دعواتكم ، وخشوعكم وتضرعكم .

ونحن نرجع إلى الأوطان بلا طول فصل ، إن شاء الله تعالى. والباقى يخبركم الحامل بالتفصيل التام . هذا . والسلام .

— ٢ —

من الكاتب الفقير شمويل إلى إخوانه الكرام قاضى وعلماء وجميع جماعة « ين » [2] :

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصانكم الله تعالى من كل آفة . ما ظهر منها وما بطن آمين . أما بعد .

فاعلموا — يا إخوانى — إنى تركت أخذ مكافئكم للرهن ثقة بكم أن لا تخونوا دين الله تعالى ورجاء أن يكون ذلكم الترك سبباً لزوال الكدورة من بينكم ، وزيادة الألفة والمحبة فيكم ، فلا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ، ولا يقصد بعضكم ضر بعض ، ولا تكونوا جواسيس « أنصال » [3] لإيصال المضرة إلى بعضكم ، وكونوا عباد الله إخواناً .

(١) مقاطعة فى شمالى الداغستان كانت ميدان معارك كثيرة بين شامل وبين الروس

(٢) إسم قرية

(٣) اسم أحد الخارجين على الشيخ شامل المتعاونين مع الروس .

هذه نصيحة من الفقير ، فمن لم يقبلها ولم يعبأ بها ، وسعى بمخالفتها . فإن أصابه منا تعزيز بليغ — ولا شك أنه يصل إن شاء الله تعالى بعونه وقوته إما بالقتل أو ما هو أيسر منه — فلا يلومن إلا نفسه ، والباقى يخبركم الحامل بأوضح بيان ، بالشافهة واللسان . والسلام .

— ٣ —

من أمير المؤمنين شمويل إلى خادم الكفار — ومحارب القهار ، وخليل الشيطان الغرار « أغلار »[1] .

سلام على من اتبع الهدى ، ونهى النفس عن موادّات العدى . أما بعد .

فإن هذا النصرانى قد اختار دين الإسلام ، من خدمة عبدة الأوثان والأصنام ، وإن اخترتم العكس . هذا .

— ٤ —

من أمير المؤمنين شمويل إلى أخيه النائب أبى بكر . سلام كثير . فالذى يقوله هؤلاء الحاملون من أخذ مزارع البنات المتزوجة إلى الأخرى مما لا يقبله العقل والنقل ، فاحذر منه ، فالسلام .

يوم السبت ٣ من جمادى الأولى سنة ١٢٧١ هـ

***

هذا هو نص الرسائل التى عثرت عليها وهى — كما رأى القارىء — رسائل عربية الأهاب واضحة الأسلوب مع مراعاة أنها كتبت قبل نحو مائة سنة ، وأن كاتبها رجل لم يغادر بلاده إلى بلاد عربية فضلا عن أنه كان مدى ثلاثين سنة متواصلة فى حرب مستعرة مع عدو قوى جبار .

والرسائل الثلاث الأولى كتبت فى إبان الثورة وفى شئون متصلة بها أشد اتصال . والرسالة الرابعة كتبت رداً على استفتاء فى شأن من شئون الحياة . وتمتاز عن بقية الرسائل بأنها مذيلة بتاريخ وهو يوم السبت الثالث من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف من الهجرة . أى قبل استسلام شامل بنحو خمسة أعوام ، فقد اضطر إلى التسليم فى صفر سنة ست وسبعين ومائتين وألف .

والشيخ شامل كان لا يعرف اللغة الروسية مع أنه عاش فى بلاد كان نفوذ الروس فيها عاماً شاملا فى كثير من الأوقات ، بل كان لا يعرف إلى جانب لغته الأصلية إلا اللغة العربية التى كان يحسنها إحساناً . فقد ذكر الفيكونت فيليب دى طرازى فى تاريخ الصحافة . (ج ٢ ص ١٧٣) عند كلامه عن سليم دى نوفل واستدعائه سنة ١٨٦١ م لتدريس اللغة العربية فى جامعة بترسبورغ — ما يأتى . « واتفق أن شاملا المشهور الذى حارب روسيا مدة ٣٢ سنة خضع وسلم لها فى ذلك الزمن ، وكان لا يحسن اللغة الروسية ، بل العربية ، فكان سليم ترجماناً بينه وبين القيصر اسكندر الثانى » .

وعلى ذكر القيصر اسكندر الثانى أقول : ذكر الفريق محمد فاضل باشا الداغستانى الذى كان أسيراً لدى الروسيين مع الشيخ شامل — هذه الحادثة :

كان الشيخ شامل مدعواً إلى إحدى الحفلات الفاخرة فى قصر الامبراطور اسكندر الثانى ، وبينما كان جالساً بجانب القيصر اسكندر الثانى على المائدة التفت إليه القيصر ، وأظهر له عظيم الاحترام والتقدير وقال له :

« إننى فخور جداً أن أرى فى مثل هذا اليوم السعيد رجلا عظيما مثلكم فى ضيافتى » .

فلم يترك شامل هذه التحية تمر بسلام ، فالتفت إلى القيصر وأجاب بهدوء :

« لو أن شخصكم الكريم كان فى أسرى وضيافتى لكان سرورى أعظم ، وافتخارى بذلك أجل ! » .

رحم الله شاملا وبرد ثراه ، فقد عاش كريماً يناضل فى سبيل دينه ووطنه أكثر من ثلاثين عاماً ، حتى إذا اضطر إلى القاء السلاح والاستسلام إلى عدوه لم تفارقه روح الرجل المسلم المناضل الحر ، ولو كان جايسه امبراطور روسيا القيصر اسكندر الثانى .

برهان الدين الداغستانى

(١) إغلار خان من أعوان الروس الخارجين على شامل . والرسالة قاسية فيها بعض غموض